٢ - ليس كمثله شيء ! !

قيل للإمام على : بم عرفت ربك ؟ قال : بما عرفنى نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شيء ، ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ، ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ، ولا يقال شيء أمامه[١] ، داخل فى الأشياء لا كشيء ، ولا من شيء ، ولا فى شيء ، ولا بشيء ، سبحان من هو هكذا ، ولا هكذا غيره[٢] .

ولا يعنينا من هذا القول أن يكون للإمام على أو لغيره ، فالقصد معرفة المعتقد الإسلامى والمعرفة الإلهية فى الفكر الإسلامى ، غير المقيد بالقوالب الفقهية ، والمقدمات والاستدلالات الكلامية . .

(١) كذا ، والسياق : ولا يقال شيء خلفه ، وخلف كل شيء ، ولا يقال شيء أمامه .
(٢) اللمع - ص ١٧٩ .

وما نسب إلى الإمام على إنما هو تصوير للوحدانية المطلقة ، كما هو تصوير دقيق للذات المحيطة بكل شيء ، دون اتصال بشيء . . وإنه – كما قال جعفر الصادق – (من زعم أن الله فى شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك ، إذ لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان فى شيء لكان محصورًا ، ولو كان من شيء لكان محدثًا »[٣] . ومع هذا ، « فهو عالم بكل شيء ، لأن المعرفة جوهره ، وهو القدير ، لأن القوة جوهره ، والمحب ، لأن الحب جوهره أيضًا . ليس لأن هذه صفات تبتعد عن جوهره . . إن شروط الزمان والمكان لا تنطبق كلية عليه »[٤] .

وهو نفس ما ذهب إليه المعتزلة من أن الله « عليم بذاته » ، و « قادر بذاته » ، و « حي بذاته » ، دون تباين بين الذات والصفة ، فلا يعنى وجود معرفة وقوة وحياة فيه أنها جزء من جوهره ، وإلا فإن حسبان هذه صفات خالدة « منفصلة عن جوهره » يمكن الجنوح بها إلى تعدد ذاتية الخالق سبحانه .

ولا يكاد المتصوفة – فى معرفتهم لله سبحانه – يخرجون على هذا الوعى الصحيح ، حتى على ألسنة أولئك الذين يذهبون باللفظ مذاهب .

فالحلاج – فى مناجاة له بجوار قبر أحمد بن حنبل – لم يبعد عما نسب إلى الإمام على :

« يا من أسكرنى بحبه ، وحيرنى فى ميادين قربه ، أنت المتفرد بالقدم ، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق ، قيامك بالعدل ، لا بالاعتدال ، وبعدك

---

(٣) الرسالة القشيرية – جـ١ ص ٤٠ و٤١ .

(٤) روح الإسلام – سيد أمير على – دار العلم للملايين سنة ١٩٦١ – ص ٤٠٦ عن جعفر الصادق .

بالعزل ، لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم ، لا بالانتقال ، وغيبتك بالاحتجاب ، لا بالارتحال ، فلا شيء فوقك ، فيظلك ، ولا شيء تحتك ، فيقلّك ، ولا أمامك شيء ، فيحدك ، ولا وراءك شيء ، فيدركك » .

ويملى على بعض تلاميذه : « إن الله تبارك وتعالى – وله الحمد – ذات واحد ، قائم بنفسه ، منفرد عن غيره بقدمه ، متوحد عن سواه بربوبيته ، لا يمازجه شيء ، ولا يخالطه غير ، ولا يحويه مكان ، ولا يدركه زمان ، ولا تقدره فكرة ، ولا تصوره خطرة ، ولا تدركه نظرة ، ولا تعتريه فترة » .

وقال : « من ظن أن الإلٰهية تمتزج بالبشرية ؛ أو البشرية تمتزج بالإلٰهية فقد كفر ، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء ، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث ؟ ومن زعم أن البارئ فى مكان أو على مكان أو متصل بمكان ، أو يتصور على الضمير ، أو يتخايل فى الأوهام ، أو يدخل تحت الصفة والنعت – فقد أشرك » .

وقال : « صفات البشرية لسان الحجة على ثبوت الصمدية ، وصفات الصمدية لسان الإشارة إلى فناء صفات البشرية ، وهما طريقان إلى معرفة الأصل الذى هو قوام التوحيد » .

وقال : « الخارج من حدود الأوهام ، وتصاوير الظنون ، وتخييل الفكر ، وتحديد الضمير ، الذى (ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير)[٥] .

---

(٥) أخبار الحلاج – مطبعة القلم بباريس سنة ١٩٣٦ – ص ١٧ و ٢٩ و ٤٧ و ٤٩ و ٧٣ على الترتيب . .

وقال :

حاضر غائب ، قريب بعيد

وهو لم تحوه رسوم الصفات

هو أدنى من الضمير إلى الوهم(م)

وأخفى من لائح الخطرات

وقال :

فما جال فى سرى لغيرك خاطر

ولا •قال – إلا فى هواك لسانى

فإن رمتُ شرقا أنت فى الشرق شرقه

وإن رمت غربًا أنت نصب عيانى

وإن رمتُ فوقًا أنت فى الفوق فوقه

وإن رمت تحتًا أنت كل مكان(٦)

هذا هو الحلاج الذى سجن وعذب ومزق جسده وصلب وحرق وذرى رماده باسم الكفر ، ومع ذلك فهو لا يحمل لقضاته مقتًا ، ولا مجرد اتهام . يقول لإبراهيم الحلوانى : « أما ترى أن ربى ضرب قِدمه فى حدثى ، حتى استهلك حدثى فى قدمه ، فلم يبق لى صفة إلا صفة القديم ، ونطق فى تلك

(٦) ديوان الحلاج – ص ٢٦ و ٥٩ .

الصفة ، والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث ، ثم إذا نطقت عن القديم ينكرون على ، ويشهدون بكفرى ، ويسعون إلى قتلى ، وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون فى يؤجرون »[٧] .

وهذا التوسع منه فى الشعور بالوجود الإلهى ، حتى يستغرق كيانه كله ، بحيث يتلاشى الوجود الإنسانى فى الوجود الإلٰهى – ما هو إلا ثمرة قوة الإيمان وعمقه ، وليس خروجًا إلى الكفر . .

ذلك لأن إدراكه حقيقة ما بين الخالق والمخلوق قوامه أن « الحق حق ، والعبد باطل ، وإذا اجتمع الحق والباطل يضرب (بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون)[٧] .

بل قد يقوى إدراكه للذات الإلٰهية المهيمنة على كل شىء ، فيرى أن « الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما »[٧] ، لأن المخلوق لا يملك إلا ما أراد الخالق ، فهو ظل الله فى أرضه ، يتحرك بحركته ، ولا حيلة إلا أن يكون مسخرًا لمشيئته وقدرته ، مفتقرًا إلى الله دائمًا ، متجهًا إلى الله دائمًا ، فإذا نطق بما يجهل ، فإن هذا النطق لن يغير من الحقيقة الكونية شيئًا ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[٨] هو عابد لله بافتقاره إلى الله ، عامل فى طاعة الله بتنفيذه مشيئة الله . .

ومع أن هذا التصوير قد يطغى على قوانين الشريعة ، فإن فى لغة من يصل بحبه إلى حد إنكار الذات رغبة فى عدم حرمان الآخرين من حب « ليلى » ،

---

(٧) أخبار الحلاج – ص ٢١ و ٥٦ و ٥٣ .

(٨) سورة الذاريات – ٥٦ .

وإن خالف هذا ما جرى عليه السلوك السوىّ للبشرية ، لكنه تعبير يمثل السمو على هذه القيود البشرية .

ولعل هذا ما عناه الإمام الغزالى بقوله :

« كلام المتصوفة أبدًا يكون قاصرًا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهم حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال »[٩] .

وهذا ما يفسره لنا قول ابن عربى : « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ، وبصفات الذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها ، وكلها حق له ، كما هى صفات المحدثات حق للحق ؟ (الحمد لله) ، فرجعت إليه عواقب الثناء من كل حامد ومحمود ، (وإليه يرجع الأمر كله) ، فعمّ ما ذم وحمد ، وما تم إلا محمود ومذموم . .

فإن كان الحق هو الظاهر ، فالخلق مستور فيه ، فيكون الخلق جميع أسماء الحق ، سمعه وبصره وجميع نسبه وإدراكاته ، وإن كان الخلق هو الظاهر ، فالحق مستور باطن فيه ، فالحق سمع الخلق وبصره ويده ورجله وجميع قواه ، كما ورد فى الخبر الصحيح »[١٠] .

وهذا ليس مجرد تفسير لوحدة الوجود ، وإنما هو استلهام واسع للحديث القدسى ، فهو لا يؤول ظاهر اللفظ ، بل يرى اللفظ على حقيقة مدلوله اللغوى ، لأن الله فى كل شىء ، كما لا ينكر أحد ، وإن كانت الظرفية ليست

---

(٩) إحياء علوم الدين – المكتبة التجارية الكبرى – جـ ٤ ص ٤٢ .

(١٠) فصوص الحكم – ص ٨٠ و٨١ .

امتزاجًا ، ولا كينونة ، أو احتواء ما .

كما أن هذا لا يعد « إلحادًا » فى أسماء الله ، إذا كانت « حقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها . . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . . فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة ، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات »[11] .

وذلك ، لأن هؤلاء الذين يجتهدون فى التعبير عن مشاعرهم الصادقة – فى حالة وقوعهم تحت مؤثرات نفسية اختلط فيها حب الله بتعظيمه ، والشوق إلى لقاء الله بإكباره ، والشعور بهيمنة الله بخشيته – قد يحسون للفظ الذى يعبرون به معانى لا تقع فى حساب من ليس فى حالهم . . ولهذا ينبغى أن نضع فى الاعتبار فتوى شيخ الإسلام تقى الدين السبكى[12] ، قبل أن نجرؤ على هؤلاء القوم بالتكفير ، أو بأنهم يلحدون فى أسماء الله .

يقول ابن عربى : « إن بعض الحكماء وأبا حامد – الغزالى – ادعوا أنه يعرف الله من غير نظر إلى العالم ، وهذا غلط ، نعم تعرف ذات قديمة أزلية ، لا يعرف أنها إله حتى يعرف المألوه ، فهو الدليل عليه »[13] .

ابن عربى لا ينكر المعرفة ، وإنما ينكر المنهج ، فالأثر دالّ على المؤثر ،

---

(١١) مدارج السالكين – جـ١ ص ٢٨ .

(١٢) انظر ص ٢٩ من هذه الدراسة .

(١٣) فصوص الحكم – ص ٨١ .

والمخلوق دليل على الخالق ، وما أكثر ما نختلف مع الصوفية فى المنهج ، والغاية واحدة ، لكن لا نجرؤ على التكفير ، فابن عربى هنا اكتفى بقوله « غلط » ، وما أيسر « الغلط » مع اختلاف وجهات النظر . ومادامت القلوب خالصة لله ، والهدف تعبير عن عظمة الله ، ورغبة فى مرضاته ، فعلينا أن نتروى فى اختيار اللفظ – ونحن بصدد تقييم الآخرين – مهما اختلفت السبل .

ولقد نجد حرص المتصوفة على الأخذ بالحديث القائل : « خلق الله آدم على صورته » ، مع طعن الكثيرين فى صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ ، وهذا الحديث يدعمه حديث آخر : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة : (انظروا فى أنفسكم) . . (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) . . ولا ريب فى أن الإنسان ومكونات خلقه العظيمة أقرب الأدلة – إلى هذا المخلوق الذى تأخذه العزة بالإثم – على وجود البارئ المصور سبحانه ، وعلى قدرته وعظمته .

وبالنظر فى المحدثات – وفى مقدمتها الإنسان – التى تتبدل وتتغير ، وتحيا وتموت ، وتزهو ويصيبها العطب ، من حيث لا تحتسب – نجد أن « الوجود كله خيال فى خيال ، والوجود الحق إنما هو الله ، خاصة من حيث ذاته وعينه ، لا من حيث أسماؤه ، لأن أسماءه لها مدلولان : المدلول الواحد عينه ، وهو عين المسمى ، والمدلول الآخر ما يدل عليه مما ينفصل الاسم به عن هذا الاسم الآخر ويتميز ، فأين الغفور من الظاهر والباطن ، وأين الأول من الآخر ؟ !

فما فى الكون إلا ما دلت عليه الأحدية ، وما فى الخيال إلا مادلت عليه الكثرة ، فمن وقف مع الكثرة كان مع العالم ومع الأسماء الإلهية وأسماء العالم ،

ومن وقف مع الأحدية كان مع الحق ، من حيث ذاته الغنية عن العالمين »[١٤] .

. . قد تبدو عبارة ابن عربى مجالا لثورة الكلاميين ، لأنه فرق بين الذات والصفات « الأسماء » ، لكن جملة العبارة تتحدث عن أثر الصفات لا عن كنه الصفات ، والعهد بابن عربى فضفاض العبارة ، وأحيانًا يسبق لفظه فكره ، ثقة أو استرسالا ، لكنه مع ذلك قادر على أن يقول الكثير ، فيعجب ، أو يثير ، أو يبعث على التساؤل . .

ونحن نجد من الصوفية من كانت عبارته أكثر قربًا مما درج عليه الفقهاء والمتكلمون ، كما فى قول ذى النون المصرى ، لرجل سأله عن التوحيد : « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعة الله للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلى ، ولا فى الأرضين السفلى ، مدبر غير الله تعالى : ومهما تصور وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك »[١٥] .

وسئل الجنيد عن التوحيد ، فقال : « معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتندرج فيه العلوم ، ويكون الله تعالى كما لم يزل »[١٥] .

وقال رويم بن أحمد بن يزيد – ت سنة ٣٠٣ هـ – عن التوحيد : (محو آثار البشرية ، وتجرد الألوهية »[١٥] .

* * *

(١٤) فصوص الحكم – ص ١٠٤ .
(١٥) اللمع – ص ٤٩ و ٥١ .

هذا عن الله سبحانه . .

أما عن علاقة الإنسان بالله ، فيصورها قول ابن عربى :

« اعلم أن هذه النشأة الإنسانية بكمالها روحًا وجسمًا ونفسًا خلقها الله على صورته » ، إذ إنه « لما شاء الحق سبحانه – من حيث أسماؤه الحسنى ، والتى لا يبلغها الإحصاء – أن يرى أعيانها ، وإن شئت قلت أن يرى عينه . . . وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوّى لا روح فيه ، فكان كمرآة غير مجلوة . . فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم ، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة ، وروح تلك الصورة » ، ومن ثم (علم آدم الأسماء كلها) ، ليكون قادرًا على تبين عظمة الخالق والمخلوق معًا ، وليكون بوسعه خلافة الله فى الأرض ، بحيث يقيم الشريعة ، ولهذا سمى إنساناً وخليفة . . فيكشف من أسرار الكون بقدرته على التجريب والتسخير والإبداع . . « فأما إنسانيته فلعموم نشأته ، وحصره الحقائق كلها ، وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين الذى يكون به النظر ، وهو المعبر عنه بالبصر ، فلهذا سمى إنساناً ، فإنه به ينظر الحق إلى خلقه فيرحمهم . . قيام العالم بوجوده ، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم ، وهو محل النقش ، والعلامة التى يختم بها الملك على خزانته . . وسماه خليفته من أجل هذا ، لأنه تعالى الحافظ به خلقه ، كما يحفظ الختم الخزائن ، فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه ، فاستخلفه فى حفظ الملك ، فلا يزال العالم محفوظًا مادام فيه الإنسان الكامل »[١٦] .

وإذا كان المقصود « بالحفظ » القدرة على الاستفادة من مكنونات « الكون » ، وإبراز أسرارها الباهرة – فإن من خلال الكشف عن هذه

(١٦) فصوص الحكم – ص ٤٨ و ٥٠ وص ١٦٧ .

« الأسرار » التى يختزنها تكوين « الإنسان الخليفة » يصبح الإنسان بمثابة « ظل الله » فى الأرض . .

« فما أوجد الحق الظلال ، وجعلها ساجدة متفيئة عن اليمين والشمال ، إلا دلائل لك عليك وعليه ، لتعرف من أنت ، وما نسبتك إليه ، وما نسبته إليك ، حتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة إلٰهية اتصف ما سوى الله بالفقر الكلى إلى الله ، وبالفقر النسبى بافتقار بعضه إلى بعض وحتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة اتصف الحق بالغناء عن الناس ، والغناء عن العالمين ، واتصف العالم بالغناء ، أو بغناء بعضه عن بعض من وجه ، هو عين ما افتقر إلى بعضه به ، فإن العالم مفتقر إلى الأسباب بلا شك افتقارًا ذاتيا ، وأعظم الأسباب له سببية الحق ، ولا سببية للحق يفتقر العالم إليها سوى الأسماء الإلٰهية ، والأسماء الإلٰهية كل اسم يفتقر العالم إليه من عالم قبله ، أو عين الحق ، فهو الله لا غيره ، ولذلك قال : (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) ، ومعلوم أن لنا افتقارًا من بعضنا لبعضنا ، فأسماؤنا أسماء الله تعالى ، إذ إليه الافتقار بلا شك ، وأعياننا فى نفس الأمر ظله لا غير »[١٧] . . « فإذا شهدناه شهدنا نفوسنا ، وإذا شهدنا شهد نفسه » . . « فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه ، وظهور أحكامها ، وليست سوى عينه » . .

ومن أجل هذا « أنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره ، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى ، ولذلك قال فيه : « كنت سمعه وبصره » ، ما قال : « كنت عينه وأذنه ، ففرق بين الصورتين » . .

---

(١٧) فصوص الحكم – ص ١٠٥

ولهذا كانت (معرفة الإنسان بنفسه مقدمة على معرفته بربه ، فإن معرفته بربه نتيجة عن معرفته بنفسه) .

« لذلك ربط النبي - ﷺ - معرفة الحق بمعرفة النفس ، فقال : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وقال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق) ، وهو ما خرج عنك ، (وفى أنفسهم) ، وهو عينك ، (حتى يتبين لهم) ، أى للناظر ، (أنه الحق) ، من حيث إنك صورته ، وهو روحك ، فأنت له كالصورة الجسمية ، وهو لك كالروح والمدبر لصورة جسدك » .

ولهذا . . فالإيمان بالله فطرة الإنسان ، أى إنسان (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، « فإن للحق فى كل معبود وجهًا يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله . . وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود » ، وذلك لأن « العالم هو بالنسبة إلى الحق كالظل للشخص ، وهو ظل الله »[18] ، ولن ينفصل الظل عن صاحبه ، لكن لن يكون الظل صاحبه . .

يقول الحلاج : « كما أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيتك ، غير ممازجة إياها ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتى ، غير مماسة لها »[19] . . « فالذى بالجسم ظهوره ، فالعرض يلزمه ، والذى بالأداة اجتماعه ، فقواها تمسكه ، والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه ، والذى للوهم يظفر به فالتصوير يرتق إليه ، ومن آواه محل أدركه أين ، ومن كان له

---

(١٨) فصوص الحكم . . ص ٥٣ و ٦٣ و ٥٥ و ٢١٥ و ٦٩ و ٧٢ و ١٠١ على الترتيب .
(١٩) أخبار الحلاج ٨ .

جنس طالبه مكيّف »[٢٠] .

ومن هنا كان معتقد الصوفية – كما قال أبو على الفارسى – أن « العارف من الله بمنزلة شعاع الشمس ، منها بدأ ، وإليها يعود ، ومنها يستمد ضوءه »[٢١] .

ومع قوة اتصال الشعاع بالشمس ، فإن الوعى الإنسانى ، والمعرفة الصادقة ، تجعل من هذا الاتصال استغراقًا فى الحب ، أو رغبة الفناء فى المحبوب ، ولهذا كان الحلاج يصيح فى سوق بغداد .

(يا أهل الإسلام ، أغيثونى ، فليس يتركنى ونفسى فآنس بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها ، وهذا دلال ، لا أطيقه » . . ثم أنشأ يقول :

حويت بكلّى كل كلّك يا قدسى
تكاشفنى ، حتى كأنك فى نفسى
أقلّب قلبى فى سواك فلا أرى
سوى وحشتى منه وأنت به أنسى
فهأنا فى حبس الحياة ممنّع
عن الأنس ، فاقبضنى إليك من الحبس[٢٢]

وليقل ما شاء من يشاء . . ليسموا هذا « حلولا » ، أو « وحدة وجود » ، مادام

(٢٠) الرسالة القشيرية – جـ١ ص ٢٨ و ٢٩ .
(٢١) أخبار الحلاج – ص ١٢١ .
(٢٢) المصدر السابق – ص ٥٧ .

المحب لا يرى إلا محبوبه ، ومادام المحبوب يملأ كل وجود المحب ، حتى إنه ليقول للمحبوب « يا أنا » ، وهو ما يسمى بالوصول . . وصول البداية – كما يقول ابن عربى – « وهو أن ينكشف للعبد جلية الحق ، ويصير مستغرقًا به ، فإن نظر إلى معرفته لا يعرف إلا الله ، وإن نظر إلى همته فلاهمّ له سواه ، فيكون كله مشغولا بكله ، ولا يلتفت فى ذلك إلى نفسه ليعمر ظاهره بالعبادة ، وباطنه بتهذيب الأخلاق . . ووصول النهاية أن ينسلخ العبد من نفسه بالكلية ، ويتجرد له ، فيكون كأنه هو »[٢٣] . .

يقول الحلاج : « ليس يستترعنى لحظة فأستريح ، حتى استهلكت ناسوتيتى فى لاهوتيته ، وتلاشى جسمى فى أنوار ذاته ، فلا عين لى ولا أثر »[٢٤] .

ولا شك فى أن الصوفية يرون أنهم بهذه « الإذابة » ، والتركيز العقلى ، يستطيعون الحصول على تقرب أكثر ، ومعرفة أدق بالخالق ، وتوصل أفضل إلى الحقيقة . . وليس الفناء « شبيهًا بوصل الجسم بالجسم ، أو العرض بالعرض ، أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالمفعول ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا »[٢٥] ، إذ الأمر لا يخرج عن المعرفة ، فالحب ، فالاستغراق ، فإنكار الذات . . « ومن قال بالحلول فهو معلول ، وهو مرض لا دواء لدائه ، ولا طبيب يسعى لشفائه »[٢٦] . . وذلك لأن العلاقة بين الخالق والمخلوق لا تتجاوز أن المخلوق مرآة الخالق ، لأن الله لما نسب الكبرياء الذى له ما جعل محله إلا السموات

---

(٢٣) ابن عربى – بلاثيوس – ص ٢٥٣ عن التحفة ص ١٤ و ١٥ .

(٢٤) أخبار الحلاج ص ٢٦ .

(٢٥) ابن عربى – ص ٢٥٢ عن التحفة – ص ١٤ .

(٢٦) الفتوحات – حـ ٤ ص ٣٧٩ .

والأرض فقال : (وله الكبرياء فى السموات والأرض) ، ما قال فى نفسه ، فالمحل هو الموصوف بالكبرياء الذى لله ، فالعالم إذا نظر إلى نفسه صغيرًا ، ورأى موجده منزهًا عما لا يليق به ، سمّى ربه كبيرًا ، وذا كبرياء ، لما كبر عنده ، بما له فيه من التأثير والقهر . . وكذلك رأى لما قامت الحاجة به والفقر إلى غيره احتاج أن يعتقد ويعلم أن الذى استند إليه فى فقره له الغنى ، فهو الغنى سبحانه فى نفس عبده ، وهو بالنظر إلى ذاته – معرّى عن النظر إلى العالم – لا يتصف بالغنى . . فالعبد هو محل الكبرياء والغنى والعظمة والعزة التى لله ، فوصف العبد ربه بما قام به ، فأوجب المعنى حكمه لغير من قام به »[٢٧] . . وبتأمل هذه العلاقة يزداد قرب المخلوق من خالقه ، ويتخلص من كل ما يفصله أو يشغله عنه ، ومن ثم لا يألو تطهرًا وصفاء وسموًّا ، حتى يتلاشى وجود المخلوق فى حضرة الخالق . .

* * *

مفاهيم ترتفع بأصحابها إلى درجة القديسين والأولياء الذين (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٢٨] .

لكن هذا السمو كثيرًا ما تصاحبه عبارات ، قد يذهب بها الظن مذاهب ، فاستغلها أعداؤهم ، أصحاب المذاهب الأخرى ، أو رجال السياسة ، أو الغيورون على الدين ، بحسبان أن هذه العبارات يضل بها العامة ، لأنهم لا يفهمون مغزاها .

---

(٢٧) الفتوحات – جـ٣ ص ٥٣٧ .

(٢٨) سورة يونس – ٦٢ .

ولعل هذا ما حدا بابن تيمية إلى القول :

« يدعون التوحيد والفناء فى التوحيد ، ويقولون : إن هذا نهاية المعرفة ، وإن العارف إذا صار فى هذا المقام لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة ، لشهوده الربوبية العامة ، والقيومية الشاملة . . هؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام ، الذين قال الله تعالى عنهم : (قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله ، قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : فأنى تسحرون ؟) فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينيه ، وربما يزعم أنه جالسه وحادثه ، يستتابون ، فإن تابوا ، وإلا ضربت أعناقهم ، وكانوا كفارًا ، إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا : (إن الله هو المسيح بن مريم)[٢٩] .

ومع هذا فابن تيمية يلتقى بمذهب المتصوفة فى (الفناء) بقوله :

« الفناء المأمور به الذى جاءت به الرسل ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه ، فيكون مع الحق بلا خلق ، كما قال الشيخ عبد القادر : كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس » . .

« إنه امتفرغ وسعه فى محبوب الحق ، فصار الحق يحبه المحبة التامة ، التى

---

(٢٩) مجموعة الرسائل الكبرى - جـ ١ ص ٣٤٢ و ٣٤٣ .

لا يصل إليها من هو دونه فى التقرب إلى الحق بمحبوباته ، حتى يصير يعلم بالحق ، ويعمل بالحق ، فصار به يسمع وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى »[٣٠] . .

وكما فعل ابن تيمية احتج ابن قيم الجوزية عليهم بأن « الصحابة – رضى الله عنهم – وهم سادات العارفين ، وأئمة الواصلين المقربين ، وقدوة السالكين – لم يكن منهم من ابتلى بذلك ، مع قوة إرادتهم ، وكثرة منازلاتهم ، ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم ، ولا شم له رائحة ، ولم يخطر على قلبه ، فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أحق به وأهله ، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم . . ولا كان هذا أيضاً لنبينا ﷺ ، ولا حالا من أحواله ﷺ ، ولهذا – فى ليلة المعراج ، لما أسرى به ، وعاين ما عاين ، مما أراه الله إياه من آياته الكبرى – لم تعرض له هذه الحال ، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله : (ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى)[٣١] ... ومع هذا ، فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله ، ولم يعرض له صعق ولا غشى ، يخبرهم عن تفصيل ما رأى ، غير فان عن نفسه ، ولا عن شهوده » . . إن « مراد الحق تعالى من عبده استحضار عبوديته ، لا الغيبة عنها ، والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله ، وعلى حظه والتنعم بالفناء فى شهوده ، لا على مراد الله منه ، وبينهما ما بينهما »[٣٢] .

وعاد فقال : « إن كان العبد مشمرًا للفناء العالى ، وهو الفناء عن إرادة

---

(٣٠) مجموعة الرسائل الكبرى – جـ٢ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٣١) النجم – ١٧ و ١٨ .

(٣٢) مدارج السالكين – جـ١ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥١ .

السِّوى – لم يبق فى قلبه مراد يزحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى ، بل يتحد المرادان ، فيصير مراد الرب هو مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد فى المراد ، لا فى المريد ولا فى الإرادة . . وهذا الفناء أوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب ، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب ، بحيث لم يبق فى القلب إلا المحبوب ومراده ، وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله » . . « نعم ، قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة ، لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات ، فتأمل هذا الوضع ، وأعطه حقه ، ولا يصدنك ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق ، فإنا لا ننكره ، بل نقرّ به ، ولكن الشأن فى مرتبته »[٣٣] .

هذا هو موقف غلاة أهل السنة من « الفناء » ، وما أظن أحداً يخرج بالصوفية – من خلال ما أوردنا من أقوالهم – عما ذهب إليه ابن تيمية وابن قيم الجوزية فى مفهوم الفناء والحب .

عن إبراهيم بن شيبان ، قال : دخلت على ابن سريج يوم قتل الحلاج ، فقلت : يا أبا العباس : ما تقول فى فتوى هؤلاء فى قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلهم نسوا قول الله تعالى : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) ؟ .

وقال الواسطى : قلت لابن سريج : ما تقول فى الحلاج ؟ قال : أما أنا فأراه حافظًا للقرآن ، عالمًا به ، ماهرًا فى الفقه ، عالماً بالحديث والأخبار والسنن ، صائمًا الدهر ، قائمًا الليل ، يعظ ويبكى ، ويتكلم بكلام لا أفهمه ، فلا أحكم بكفره .

---

(٣٣) مدارج السالكين – جـ١ ص ٤٦٨ و٤٧٩ .

وعن أبى بكر الشبلى ، قال : قصدت الحلاج وقد قطعت يداه ورجلاه وصلب على جذع ، فقلت له : ما التصوف ؟ فقال : أهون مرقاة منه ما ترى ، فقلت : ما أعلاه ؟ فقال : ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترى غدًا . .

وقُدم لتضرب عنقه ، فقال بأعلى صوته : حسب الواحد إفراد الواحد له ، ثم قرأ : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق) الآية .

وقيل : هذا آخر شىء سمع منه، ثم ضربت عنقه ، ولف فى باريه ، وصب عليه النفط وأحرق ، وحمل رماده على رأس منارة لتنسفه الريح[٣٤] . .

وتنسف الريح هذا الذى يقول : « هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى ، تعصبًا لدينك ، وتقربًا إليك ، فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد »[٣٥] .

ويقول لإبراهيم بن فاتك : « يا بنى ، إن بعض الناس يشهدون على بالكفر ، وبعضهم يشهدون لى بالولاية ، والذين يشهدون على بالكفر أحب إلى وإلى الله من الذين يقرون لى بالولاية » .

فقال إبراهيم : يا شيخ ، ولِمَ ذلك ؟

قال : « يشهدون لى بالولاية من حسن ظنهم بى ، والذين يشهدون على بالكفر تعصبًا لدينهم ، ومن تعصب لدينه أحب إلى الله ممن أحسن الظن بأحد »[٣٥] . .

---

(٣٤) أخبار الحلاج – ص ١٠٦ و١٠٧ و٣٦ .

(٣٥) أخبار الحلاج – ص ٨ و١٤ و١٥ .

رحم الله « الحسين بن منصور ، لم أر متحدًا رتق وفتق ، وبربه نطق ، وأقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، وركب طبقًا على طبق — مثله ، فإنه نور فى غسق ، منزلة الحق لديه منزلة موسى من التابوت ، ولذلك كان يقول باللاهوت والناسوت »[٣٦] .

* * *

أما عن قوله : « أنا الحق » فتعبير لا يكاد يخرج عن « استفراغ وسعه فى محبوبه الحق » — كما قال ابن تيمية — بحيث صار « أنا من أهوى ومن أهوى أنا » ، أو كما قال آسين بلاثيوس : « يبدو أنها لا تدل على أكثر مما تدل عليه عبارة القديس بولس : « المسيح يحيا فىّ » . .

يقول أحمد الفاروق السرهندى — مجدد الألف الثانية — « قول الحسين بن منصور الحلاج : « أنا الحق » ، وقول أبى يزيد البسطامى : « سبحانى ، ما أعظم شانى » ، وأمثال ذلك ، فالأولى والأنسب تنزيلها إلى التوحيد الشهودى . وإبعاد المخالفة عنها ، فإنهم لما اختفى ما سوى الحق عن نظرهم تكلموا بهذه الألفاظ فى غلبة ذلك الحال ، ولم يثبتوا غير الحق ، سبحانه ، ومعنى قوله : « أنا الحق » أنه الحق دون أنا ، فإنه لما لم ير نفسه لم يثبته ، لا أنه رأى نفسه ، وقال إنه الحق ، فإن هذا كفر ، وفى قول : « سبحانى » أيضًا تنزيه الحق ، لا تنزيه القائل نفسه ، فإن نفسه قد ارتفع عن نظره بالكلية ، ولا يتعلق به حكم أصلا »[٣٧] .

فكأن الحلاج ما أراد إلا أن الموجود واحد ، وليس هناك شىء إلا الله ،

---

(٣٦) الفتوحات — جـ٤ ص ٣٣٢ .

(٣٧) المكتوبات للسرهندى — إستانبول سنة ١٩٦٣ — جـ١ ص ٥٦ .

وكل امرئ أفنى عن نفسه الذاتيات الشخصية قائم بالحق ، وهو « الحق » ، أى بمجرد أن تزول عنا « أنا ونحن وأنت » لايبقى شيء إلا « هو » . .

يقول الصوفية : كما أن شجرة مشتعلة قالت لموسى : « إننى أنا الله » ، كذلك فنى الحلاج ، واتصل بالحق ، فقال : « أنا الحق » ، وإذا كان جائزًا قول شجرة : « أنا الله » فكيف لا يجوز ذلك من رجل سعيد ؟ ! ومتى ما فنى السالك فى الله اتحد معه ، كالقطرة إذا سقطت فى البحر ، تزول عنها ذاتية القطرة ، وإذا ما فنيت فى البحر ، ولم يبق شيء سوى البحر ، تستطيع القول حينئذ : « إننى أنا البحر »[٣٨] . .

أو بمعنى آخر : إن قول « بعض الرجال : ما فى الجبة إلا الله ، يريد أنه ما فى الوجود إلا الله ، كما لو قلت ما فى المرآة إلا من تجلى لها لصدقت ، مع علمك أنه ما فى المرآة شيء أصلا ، ولا فى الناظر من المرآة شيء ، مع إدراك التنوع والتأثر فى عين الصورة من المرآة ، وكون الناظر على ما هو عليه لم يتأثر »[٣٩] ، فالحلاج لم يزد على كونه مرآة لله .

أما قول أبى يزيد : « بطشى أشد » ، حين سمع قارئًا يقرأ (إن بطش ربك لشديد) ، فمداره أن بطش المخلوق – إذا بطش – لا يكون فى بطشه شيء من الرحمة[٤٠] ، على حين تصحب الرحمة الإلهية بطش الخالق بمخلوقاته . .

وهذا أشبه بقول أحد شيوخ ابن عربى – ممن كان مثل أبى يزيد فى الحال – إن الحق ذكر له عظم ملكه ، فقال الشيخ : يارب ، ملكى أعظم من

---

(٣٨) تاريخ التصوف فى الإسلام – جـ٢ ص ٥٥٠ .

(٣٩) الفتوحات جـ٣ ص ٨٠ .

(٤٠) المصدر السابق – جـ٣ ص ٤١٢ .

ملكك ، فقال له : كيف تقول ؟ ! وهو أعلم ، فقال الشيخ : يارب ، لأن مثلك فى ملكى ، فإنك لى ، تجيبنى إذا دعوتك ، وتعطينى إذا سألتك وما فى ملكك مثلك ، فقال : صدقت »[٤١] . .

هو لون من « الاستطالة » اللفظية القائمة على « الدلال » و « الاستدلال » معًا . .

فقول أبى يزيد : أنا الله ، يعنى : أنا أدل على هوية الله من كلمة الله عليها[٤٢] .

* * *

ومع هذا ، فليس كل الناس على مثال الحسين بن منصور الحلاج أو أبى يزيد البسطامى .

وما أحسن قول ابن عربى فى هذا : إن « المحب لله كلما أعطاه إدلال الحب وصدق المودة من الخلل – فى ظاهر الأمر – لا يؤاخذ به المحب ، فإن ذلك حكم الحب ، والحب مزيل للعقل ، وما يؤاخذ الله إلا العقلاء »[٤٣] .

ولو أننا توقفنا عند قوله : « فى ظاهر الأمر » لكان على من لا يملكون أن يتقوا الله فيمن يملكون .

---

(٤١) الفتوحات – جـ٢ ص ٤١٠ .

(٤٢) المصدر السابق – جـ٤ ص ١١٨ .

(٤٣) نفسه – جـ٢ ص ٣٥٨ .